

المرأة والامة

—

كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على ان يستعرف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها يعلم ان الامة المصرية دخلت اليوم في دور مهم بل في أهم دور من تاريخها انى لا أجد في ماضيها عصراً انتشرت فيه المعارف وظهر فيه الشهور بالروابط الوطنية وانبث الامن والنظام في انحاء البلاد وتهيأت الاسباب للتقدم مثل العصر الذي نعيش فيه الآن . ولكنها من جهة اخرى لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضه للخطر مثل ما هي في هذا الزمن . فان تمدن الامم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه الى جميع انحاء المسكونة فلا يكاد يوجد منها شبر الا وطئه بقدمه . وكما دخل في مكان استولى على منابع الثروة فيه من زراعة وصناعة وتجارة . ولم يدع وسيلة من الوسائل

الا استعمالها فيما يعود عليه بالمنفعة وان اضر بجميع من حوله من سكان البقاع الاصليين . فانه انما يسعى الى السعادة في هذه الحياة الدنيا يطلبها انى وجدها وبأى طريقة يرى النجاح فيها . وهو في الغالب يستعمل قوة عقله فاذا دعت الحال الى العنف واستعمال القوة لجأ اليهما . فهو لا يطلب الفخار والمجد فيما يمتلك او يستعمر لانه يجد ذلك متوفراً له في اعماله العقلية واختراعاته العلمية . وانما الذي يحمل الانكيزى على ان يسكن الهند والفرنساوي الجزائر والروسي الصين والالماني زنجبار هو حب المنفعة والرغبة في تحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها !

فان صادفوا أمة متوحشة مهما كان بأسها أبادوا أهلها وأهلكوهم أو أجلوهم عن أرضهم كما حصل في امريكا واستراليا وكما هو حاصل الآن في افريقيا حيث لا يرى أثر لاهالى البقاع التى احتلها الاوروبوى لانهم خرجوا منها طوعاً أو كرهاً . وان صادفوا أمة كأمتنا دخل فيها نوع من المدنية من قبل ولها ماض ودين وشرائع واخلاق وعوائد وشي من النظمات الابتدائية خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم

بالمعروف . لكن لا يمضي زمن طويل الا وترى هؤلاء
القادمين قد وضعوا ايدهم على أهم أسباب الثروة لانهم
أكثر مالا وعقلا وعرفانا وقوة فيتقدمون كل يوم وكلما
تقدموا في البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه داروين
قانون التزاحم في الحياة فطرة الله التي فطر عليها جميع الانواع
وأودعها لها لتمدها الى الرقي في درجات الكمال . فما ضعف منها
عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذ الوجود الى
خفاء العدم . وما قوى عند التغالب اظفره الله بالنصر المبين
فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهنا بظفره على انه
افضل بني نوعه واكرمهم فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو ويظهر
فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره

فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والقضاء الا طريق
واحدة لا مندوحة عنها . وهي ان تستعد الامة لهذا القتال
وتأخذ له اهبتها وتستجمع من القوة ما يساوي القوة التي
تهاجمها من أي نوع كانت : خصوصاً تلك القوة المعنوية وهي
قوة العقل والعلم التي هي أساس كل قوة سواها
فاذا تعلمت الامة كما يتعلم مزاحموها . وسلكت في

التربية مسالكهم . وأخذت في الاعمال ما خذهم وتدرعت
للكفاح بمثل ما تدرعوا به امكدها أن تعيش بجانبهم بل تيسر
لها أن تسابقهم فتسبقهم فتستأثر بالخير دونهم . لان البلاد
بلادها وأرضها أبرّ بها منها بالغريب عنها وإبناءها اقدر على
المعيشة فيها . وهم السواد الاعظم فكيف اذا ظفروا من
انفسهم بتلك الحال الشريفة لا يفلحون

وهذه الطريق — طريق النجاة — كما قدمت مفتوحة
امامنا ولا يوجد عائق يعوقنا عن السير فيها الا ما يكون من انفسنا
فان كان للمصريين همّة وصدق عزيمّة في طلب سعادتهم
والمحافظة على بقائهم والسعي الى خلاصهم ونجاتهم من التهلكة
فعليهم ان يسلكوا تلك الطريق ويخلعوا عنهم كل عادة سيئة
وينزعوا من انفسهم كل خليقة ممقوتة تعطل مسيرهم . وليعتمدوا
على انفسهم في اصلاح انفسهم . ولا يضيعوا اوقاتهم في امانى
باطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم فان حكومتهم لا تستطيع
من العمل لهم الا قليلاً . أما هم فانهم يستطيعون ان يأتوا في اصلاح
شؤونهم بالجم الكثير . ماذا يفيدهم أن يقولوا كل يوم أنت
الحكومة لم تقم بما يجب عليها ؟ أهذا يمنعنا من ان نفعل ما

يجب علينا لأنفسنا ؟

نحن اليوم متمتعون بعدل وحرية لا أظن أن مصر
رأت ما يماثلها في أى زمن من أزمانها . وهما الامران اللذان
تحتاج اليهما الامة أشد الاحتياج ولا يتسربدونهما نجاح في عمل
من الاعمال العظيمة التي يقوم بها اصلاحها . فما علينا الا ان
نتهز فرصة ماوصلنا اليه ونحرث ارضنا ونسقي غراسها وننتظر
ما يأتى به من الثمرات فاذا نضجت اقتطفناها . وكما أن الزراع
يجب عليه قبل أن يلقى البذور في الارض ان يهتم بمعرفة طبيعتها
وما تحتاج اليه من الاعمال لتحضيرها وتهيئتها حتى لا يضيع
ماله وتعبه كذلك يجب علينا أن نبحث في أسباب تاخرنا . فاذا
عرفناها عمدنا الى ازالتها ووصلنا أنفسنا من التخطي على غير هدى
وارحنا أنفسنا من التجارب العقيمة

وقبل الكلام فيما نريد البحث فيه ثبت هنا أمراً لاحظ
كل من له الملم باحوال الشرق : وهو تأخر المسلمين عام
فيه أين كانوا . فالسبب يجب ان يكون عاماً ايضاً
أما اختلاف الشعوب والاقاليم فليس له تأثير كبير في
انحطاط المسلمين . اذ لو كان له أثر لوجد اختلاف بين التركي

والمصري والهندي والفارسي والبشناقي والصيني من حيث
 العمران والمدنية ولكننا لا نرى اختلافاً بينهم من هذه الجهة
 وانما الاختلاف محصور في بعض الصفات النفسانية وبعض
 العوائد . ذلك هو كل ما فعله اختلاف الشعوب والاقليم .
 فالتركي مثلاً نظيف صادق شجاع والمصري على ضد ذلك
 الا انك تراهما رغما عن هذا الاختلاف متفقين في الجهل
 والكسل والانحطاط . اذاً لا بد ان يكون بينهما امر جامع
 وعلة مشتركة هي السبب الذي أوقعهما معاً في حالة واحدة
 ولما لم يكن هناك امر يشمل المسلمين جميعاً الا الدين
 ذهب جمهور الاورباويين وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين
 الى ان الدين هو السبب الوحيد في انحطاط المسلمين وتأخرهم
 عن غيرهم حتى الذين يشاركونهم في الاقليم ويساكنونهم في
 البلد الواحد . ولم يقصد أحد منهم خصوصاً افاضل المسلمين
 المشتغلين باحوال الامم الاسلامية ان يتهم الدين الاسلامي
 الحقيقي بانه السبب في انحطاط المسلمين . فان كل من عرف
 هذا الدين من الاجانب فضلاً عن ابنائه المنتسبين اليه يحل
 قدره ويحترمه ويعترف ان آثاره الماضية في الامم التي انتشر

بينها برهنت على انه وسيلة من أفضل الوسائل وعامل من أقوى العوامل التي تسوق الانسان في طرق الترقى والتقدم الى غايات السعادة . ولكنهم يرون ان ما يزعمه المسلمون اليوم ديناً وتسميه عامتهم بل وأغلب علمائهم بدين الاسلام قد اشتمل على امور كثيرة من عقائد وعوائد وآداب موهومة لا علاقة لها بالدين الحقيقى الطاهر وانما هي بدع ومحدثات الصقت به : فهذا الخايط الذى سماه الناس ديناً واعتبروه اسلاماً هو المانع من الترقى .

وليس في امكان احد ان ينكر ان الدين الاسلامي قد تحول اليوم عن أصوله الاولى وان العلماء والنقهاء - الا قليلا ممن انار الله قلوبهم - قد لعبوا به كما شاءت أهواؤهم حتى صيروه سخرية وهزواً وحققت عليهم كلمة الكتاب : « واتخذوا دينهم هزواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا »

ولكنى أعتقد ان هذا الانحطاط الذى طرأ على الدين ليس سبباً لما عليه المسلمون الآن وانما هو نتيجة لامر : هو الجهل الفاشي في المسلمين عامة رجالا ونساء

كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه واصحابه كلهم

يخدمون الدين ويشتغلون بالدنيا في آن واحد . وصرحت السنة
كما أجمعت عليه الأئمة بان لا قوام للدين الا بسلطة تحفظه .
فلم يمض الا قرن واحد من عهد ظهور الاسلام حتى صار علم
المسلمين يخفق على أهم أقسام العالم . ولم يكن الغرض من
هذه الفتوحات العجيبة اكرام الناس على الاخذ بهذا الدين
وانما كانوا يفتحون البلاد دفاعاً عن الحوز وتوسيعاً
لنطاق الملك والسلطة والانتفاع بالصناعة والتجارة: وهو المقصد
الذي يعمل له الاوروبايون في بلاد الشرق الآن

ثم لم يمض على ظهور الاسلام جيلان الا وقد اضاء
الكون بنور العلوم التي نشرها المسلمون في كل أرض احتلوها
وبلد أقاموا به فلم يتركوا فرعاً من العلوم ولا فناً من الفنون
الا تعلموه وألفوا فيه وزادوا عليه حتى العرب — تلك الامة
الامية التي ربما صح فيها قول ابن خلدون انها لا تصلح للمدنية
أبدآ — اندفعت بقوة ذلك التيار وعامل تلك النهضة الى
منافسة مواطنهم في خدمة العلم . وكانت هذه الحركة عامة
في كل ما يجول فيه الفكر ويمتد اليه النظر وتتناوله مدارك
البشر: هذا يشتغل بعلوم الكلام . وآخر بالعلوم الطبيعية

وثالث بالفلك والحساب . ورابع بالتاريخ والجغرافيا . وخامس
بالمسفة والاخلاق . ولم يهتموا الصناعة والتجارة فبنوا وشيدوا
وامتلات سفنهم بالبضائع تجرى في البحار حول الارض .
واستمر هذا الحال على ضرب من التفاوت بحسب الازمان الى
ان رزى المسلمون بوقائع التاتار في الشرق وانقراض الخلافة
منه . وزالت دولة العرب من الاندلس وانتقلت العلوم الاسلامية
الى أوروبا فرجع المسلمون الى حالة الجاهلية الاولى

ومن ذلك الحين انطفأ مصباح العلم من الشرق باجمعه
واقصر علماء الاسلام على النظر في شيء من علوم الكلام
وبعض شيء من قواعد اللغة العربية وانصرفوا عن كل شيء سواها
ولما ساد الجهل على عقولهم وتراكت ظلماته في اذهانهم
لم يعد في استطاعتهم أن يفهموا حقيقة الدين وشعروا أن ضعفهم
لا يسمح لهم بان يصعدوا اليه بعقولهم فانزلوه من مكانه الرفيع
ووضموه مع جهلهم في مستو واحد . ثم أخذوا يتصرفون
فيه تصرف النقي الاحق : والجاهل كالطفل يغتر بنفسه ويعجب
بمعارفه ويؤذي نفسه والناس معه

أنظر الى الجاهل تجده دائماً يختار من فكرين أقلهما صواباً

ومن طريقين أصعبهما ومن عملين أضرهما . ذلك لان الحق سواء كان فضيلة أو مصلحة يلتبس بالباطل ويخفى على الناظر فلا يراه الا بعيد النظر نافذ البصيرة في مصائر الامور وعواقبها ثم هو يحتاج في الوصول اليه الى عناء يفر منه الجاهل الكسول وفيه حرمان من لذة حالية في سبيل منفعة مستقبله

ومن رأى علمائنا اليوم أن الاشتغال بشؤون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شيء لا يعينهم . وصار منتهى علمهم أن يعرفوا في اعراب البسلة ما يزيد من غير مبالغة على الف وجه على الاقل . وان سألهم عن شيء من الاشياء المتداولة في أيديهم كيف صنع أو عن حال الامة التي هم منها أو امة أخرى تجاوزهم أو الامة التي احتلت بلادهم أين موقعها الجغرافي وما منزلتها من القوة والضعف . بل لو سألت الواحد منهم عن وظيفة عضو من أعضائه أو مكانه من بدنه — هزوا اكتافهم ازدراء بالسائل والمسئلة واحتقاراً لهما . وان تكلمت معهم في نظام حكومتهم الداخلي وقوانينها وحالتهم السياسية والاقتصادية وجدتهم لا يدرون منها شيئاً . وسواء عاشوا في العز او في النزل فهم على كل حال عائشون وبما ينحطون اليه راضون .

ویرون ان لیس للانسان أن یعمل لمصلحة نفسه وان یختار لها
 أمراً . ویزعمون انهم وکلوا جمیع أمورهم الى ما یجرى به القضاء .
 مع انک تراهم أشد الناس احتیالا فی طلب الرزق من غیر
 وجهه واحرصهم علی حفظ ما یجمعون من الحطام ونیل ما
 یتوهمونه شرفاً ورفعة ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فیما بینهم
 فهم فی الحقیقة یریدون التخلص من مشقة العمل وانما یحتجون
 بالقدر تضایلا للعامة واقناعاً للسذج بانهم فی تقصیرهم فی أداء
 ما فرضته علیهم الشریعة مقهورون بقوة القضاء

ظن هؤلاء المساکین انهم متى عرفوا کیف تستقیم
 العبارات وکیف تمذب الالفاظ بالاعراب والصرف عرفوا
 ما فی الدین والدنیا . والبعد بینهم و بین الدین الحقیقی عظیم
 قال الاستاذ الشیخ محمد عبده فی بیان ما جاء به الاسلام
 کلاماً نأخذ منه ما یناسب المقام هنا لانه أحسن ما کتب فی
 هذا الزمان لتنبیه افکار المسلمین :

« طالب الاسلام بالعمل کل قادر علیه وقرر أن لکل
 « نفس ما کسبت وعلیها ما اکتسبت » فمن یعمل مثقال ذرة
 « خیراً یره . ومن یعمل مثقال ذرة شراً یره . » وان لیس

« للانسان الا ما سعى » ، وأباح لكل أحد أن يتناول من
 « الطيبات ما شاء اكلا وشرباً ولباساً وزينة . ولم يحظر
 « عليه الا ما كان ضاراً لنفسه أو بمن يدخل في ولايته أو ما
 « تعدى ضرره الى غيره . وحدد له في ذلك الحدود العامة
 « بما ينطبق على مصالح البشر كافة . فكفل الاستقلال لكل
 « شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعى حتى
 « لم يعد لها عقبه تتعثر بها الهمم الا حقاً محترماً تصطدم به
 « انحنى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يرد هائمه
 « القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتنعت أصوله
 « الراسخة في المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان
 « في عقائد الامم . وصاح بالعقل صيحة ازعجته من سبائه
 « وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع
 « من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم
 « نعم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة
 « كليلة والازواد قليلة

« علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بان
 « الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولسكنه فطر على ان يهتدى

« بالعلم والاعلام اعلام الكون ودلائل الحوادث . وانما
 « المعلمون منبهون ومرشدون الى طرق البحث هادون
 « صرح في وصف أهل الحق بانهم « الذين يستمعون
 « القول فيتبعون أحسنه » . فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير
 « فرق بين القائلين لياخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم
 « يتبينوا صحته ونفعه . ومال على الروساء فانزلهم من مستو
 « كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعتهم تحت انظار مرؤوسهم
 « يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم حسبا يحكمون
 « ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون
 « صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما
 « توارثه عنهم الابناء وسجل الحق والسفاهة على الآخذين
 « بأقوال السابقين ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات
 « العرفان ولا مسمياً لمقول على عقول ولا لاذهان على اذهان
 « وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان . بل اللاحق
 « من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما
 « وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من
 « أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل

« الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم طغيان
 « الشر الذي وصل اليهم بما اقترفه سلفهم » قل سيروا في الارض
 « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . وأن أبواب فضل
 « الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي وسعت كل شيء لن
 « تضيق عن دائب

« عاب أرباب الاديان في اقتفاءهم أثر آبائهم ووقوفهم
 « عند ما اخطت لهم سير أسلافهم وقولهم: » بل نتبع ما وجدنا
 عليه آباءنا، . انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون» (١)
 ومما يستحق أن نفرح له هو أن نفراً من علماء عصرنا
 في مصر وفي غيرها من بلاد الاسلام شرقاً وغرباً يرون
 ما نرى ويقولون ما نقول ويعترفون بان العلوم التي تقرأ الآن
 في الازهر وفي غيره لا تفيد ان لم تؤسس على الحقائق العلمية
 التي تهيم العقول لقبولها والانتفاع بها

وفي الحقيقة أن علوم التوحيد والفقه لا يمكن الانتفاع
 بها اذا لم يسبقها الالمام بالمعارف العامة والمبادي العلمية . أليس
 التوحيد هو خاتمة العلوم كلها وخلاصة مجموعها ؟ أليس الفقه علم

شريعة كل نفس في ارتباطها بخالقها وفي معاملتها مع بقية البشر وكلاهما يحتاج الى معرفة علم النفس وتشرح الجسم ووظائفه والتاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها مما تسمو به الافكار ويرتقى به العقل : أليس العلم في الحقيقة واحداً يشبه شجرة ذات فروع وأفنان تتصل كلها بأصل واحد وتتغذى من جذر واحد وتخدم حياة واحدة وتنتج ثمرة واحدة هي معرفة حقيقة كل شئ في الوجود

وما علينا الا ان نصنى لمقال هؤلاء العلماء الافاضل الذين هم أدري منا بمحاجات الدين ولا يخفى عليهم شئ من حاجات الدنيا وأن نعضدهم في مشروعاتهم الصالحة ليستيقظ الدين من نومه الطويلة ويذال العقابات ويتغلب على المصاعب التي أقامها أهله في طريقه

ولا حاجة بنا الى التطويل في شرح أمر صار معلوماً عند الكل وهو انحطاط الدين اليوم في جميع مظاهره حتى في العبادات وإنما أردنا ان نين ان انحطاط الدين تابع لانحطاط العقول وأن العلة الاولى التي هي مصدر غيرها من العلل التي حالت بيننا وبين الترقى هي اهمال التربية في الرجال وفي النساء معاً

فان استمر ذلك السبب لم يصلح للامة حال بل يستمر كل أمر على حاله : والدين أيضاً . وان زال ذلك السبب صالح حال الامة في جميع مظاهرها حياتها العقلية والادبية وصلح معها الدين أيضاً

أما ان تربية الرجال تصلح شأن الامة وتقوم اعوجاجها فهذا مما صار معروفاً عند كل احد مسلماً عند الجميع . وأما وجوب تربية المرأة أيضاً فلا يزال محتاجاً الى البيان :

المرأة لا تكون خلقاً كاملاً الا اذا تمت تربيتها الجسمية والعقلية . أما تربيتها الجسمية فلانها لازمة لها في استكمال صحتها وحفظ جمالها . فيجب أن تربي كما يجب أن يربي الرجال على تمرين الجسم بالحركة والرياضة لان الجسم الضعيف لا يسكنه الا عقل ضعيف ولان ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والحمية انما هو ناشئ عن عدم انتظام وظائف اعضاء الجسم

فسلامة العقل في جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم . وهذا هو السر في تقدم الجنس الانكليزي السكسوني على غيره ويرى القراء في الكتاب الذي ترجمه صديق احمد فتحي

بك زغلول من اللغة الفرنسية الى العربية (١) كيف ان
نشاطهم وجراعتهم واقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات
التي تعترف كل الامم بامتيازهم فيها عن سواهم هي نتيجة لعب
الكرة والسباحة وركوب الخيل والحرية والاستقلال في
الاعمال مما له دخل كبير في تربية اطفالهم ذكورا واناثا. ولهذا
ابتدأ الفرنسيون وغيرهم في تقليدهم لانهم ادركوا ان تربية
العقل التي اعتنوا بها لا تشرثمرتها الا اذا صحبتها تربية الجسم
وان موازنة العقل لا تتم الا بموازنة وظائف الجسم . واذا
تذكر القارئ ما سبق بيانه من ان الولد يرث من ابويه
خصوصاً من أمه الحالة الجسمية والعقلية التي تكون عليها مدة
حمله يعلم مقدار ما تستفيد المرأة والرجل والهيئة الاجتماعية
كلها من الاعتناء بصحة المرأة

واما تربيتها العقلية فلانها بدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها
كما هي حالتها الآن عندنا . نعم انها تلد ويحفظ بها النوع
الانساني . لكنها في ذلك انما تؤدي وظيفة كل انثى من سائر
انواع الحيوانات وهي لا تمتاز في عملها هذا عن نحو هرة ولود

وفي الحق اننا ضيقنا دائرة وظيفة المرأة وخصصناها بالتاج ولم نطلب منها شيئاً غير ذلك . وسببه اننا توهمنا ان المرأة لا تصلح لعمل آخر وان الرجال غير محتاجين للنساء في القيام بشؤون الحياة الخاصة والعامة وغاب عنا ان الرجل انما يكون في كبره كما هيأته والدته في صغره

فهذا الارتباط التام بين الرجل وامه هو الامر المهم الذي اريد ان يفهمه الرجال . وهو ثمرة كل ما وضعته في هذا الكتاب

أني اكرر ماقلته من أنه يستحيل تحصيل رجال ناجحين ان لم يكن لهم أمهات قادرات على أن يهيئهم للنجاح . فتلك هي الوظيفة السامية التي عهد التمدن بها الى المرأة في عصرنا هذا وهي تقوم باعبائها الثقيلة في كل البلاد المتقدمة حيث نراها تلد الاطفال ثم تصوغهم رجالاً

وبديهي أن العمل الاول وهو الولادة هو عمل بسيط مادي تشترك فيه المرأة مع الحيوانات فلا يحتاج الا الى بنية سليمة . أما العمل الثاني وهو التربية فهو عمل عقلي امتاز به النوع الانساني وهو محتاج في تأديته الى تربية واسعة واختبار

عظيم ومعارف مختلفة

والامر الذي يلزم أن تلتفت اليه كل أمة لا تغفل عن مصالحها الحقيقية هو وجود النظام في العائلات التي يتكون منها جسم الامة لان العائلة هي أساس الامة . ولما كانت المرأة هي أساس العائلة كان تقدمها وتأخرها في المرتبة العقلية أول مؤثر في تقدم الامة وتأخرها

المرأة ميزان العائلة . فان كانت منحلة احتقرها زوجها وأهلها وأولادها وعاشوا جميعاً منحلين لا يرتبط بعضهم ببعض ولا يعرفون نظاماً ولا ترتيباً في معيشتهم ففسد آدابهم وعوائدهم . أما ان كانت المرأة على جانب من العقل والادب هذبت جميع العائلة واحترمها افرادها واحترموا أنفسهم وعاش الجميع في نظام تام تحت لواء محبتها متضامنين أقوياء باتحادهم وهذه الصفات التي تشاهد في العائلة هي الصفات التي تشاهد في الامة اذ كل منا يسلك في أمته مسلكه في عائلته . ومن المحال أن يكون للانسان من الصفات والاخلاق في أمته ما ليس له نموذج في منزله . وأن يعامل مواطنيه باخلاق غير التي يعامل بها افراد عائلته . فان كان حسن الاخلاق

في عائلته كان كذلك في أمته وان كان سئ الاخلاق في عائلته ساءت أخلاقه في أمته أيضاً . ومن هذا يتبين مقدار عمل المرأة في تقدم الامم وتأخرها

وبالجملة فان ارتقاء الامم يحتاج الى عوامل مختلفة متنوعة من اهمها ارتقاء المرأة . وانحطاط الامم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة أيضاً من اهمها انحطاط المرأة

فهذا الانحطاط في مرتبة المرأة عندنا هو أهم مانع يقف في سبيلنا ليصعدنا عن التقدم الى ما فيه صلاحنا . وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التي ينتظرها مرور الزمان ويجوز الابطاء في أعداد الوسائل لها كما يتوهمه كثير من الناس الذين يطنطنون بمزايا تربية الذكور ويقدمونها على تربية البنات . وانما هي من الحاجيات بل من الضروريات التي يجب البدء بها والعناية بتوفير ما يلزم لها من المعدات . وهي الواجب الخطير الذي ان قننا به سهل علينا كل اصلاح سواء وان أهملناه أفسد علينا كل اصلاح سواء

دلت التربية الجديدة التي منحها نساء أوروبا من نحو قرن على أن المرأة ليست تلك الآلة البسيطة التي وقفها اولئك

الاسلاف الغافلون على التناسل . فبمجرد ما حل العقل محل القوة وحلت الحرية محل الاستبداد رأى العالم ان في المرأة أسراراً لم تعرفها الجاهلية الاولى وانها تصلح لوظائف سامية مثل التي يصلح لها الرجال وان انحطاطها كان عارضياً لا طبيعياً . فلما استيقظت من نومها واستنار عقلها واستقامت ملكاتها وتحلت نفسها بالفكر والعلم ومررت قواها على العمل صعدت من العقل الى درجة وذهبت في رقة الشعور الى غاية لم تكن تخاطر في خيال أحد من أهل تلك العصور الخالية . وهي الى الآن كلما تمتعت بحريتها زاد ارتقاؤها

كل مطلع على حركات النساء الغربيات واعمالهن لا يشك في انهن يأتين من الاعمال العظيمة ما لا قوام للمدينة بدونه : لا يوجد فرع من فروع الصناعة والتجارة ولا علم من العلوم ولا فن من الفنون الا والمرأة عاملة فيه مع الرجل كتنافس الكتف . ولا يوجد عمل خيري الا وهي في أول الاماين فيه . ولا تقع حادثة سياسية الا والمرأة نصيب فيها . وليس بين الصنفين فرق الا ان المرأة لم تنل الحقوق السياسية فاذا منحها كما هو المنتظر في بلاد اوربا تمت المساواة بينهما . على انها قد نالت

منها الآن شيئاً كبيراً حيث خول لها حق الانتخاب في امريكا
وفي انكلترا في المجالس البلدية وفي فرنسا في المحاكم التجارية
وفي بعض ممالك الولايات المتحدة تجلس المرأة في المجالس
الشورية . ولا تخلو اليوم عاصمة من عواصم اوربا وامريكا من
جمعية للنساء همها أن تطالب بحقوق المرأة والسعى في سبيل
اكتسابها . وكل سنة تمر تترك في تاريخ اعمالهن أثراً شريفاً
وتنتهى بفوز جديد

ولا يشك أحد من الواقفين على هذه الحركة التي اظهر
فيها هذا الصنف الضعيف قوة عجيبة ان المرأة لا بد ان تصل
في زمن قريب الى مستوي تباع فيه . تنتهى ما تطالب من مساواتها
للرجال في جميع الحقوق . ولا يعلم ماذا يكون بعد ذلك الا الله
وهل يقف النساء عند هذا الحد او يسبقن الرجال في ميدان
التقدم والترقي

ومن البديهي ان هذه القوى التي تصرفها النساء في التجارة
والصناعة والفنون والعلوم وان كانت كل واحدة منها على حدة
لا يظهر اثرها للناظر في أحوال الامة ولكن لجمعها مجموع
واحد يظهر أثره في احوالها تمام الظهور . وهي رأس مال عظيم

نحن مقصرون في العناية والانتفاع به

وعندى أن من أعظم ما يؤسف عليه حرمان بلادنا من
اعمال النساء الخيرية . لان الميل الى الخير من غرائز المرأة
الفطرية ويقودها اليه رقة الاحساس وحنو القلب . ولها من
الصبر على خدمة الفقراء والمرضى ما لا يتحمله أعظم الرجال جلداً .
ولها اعتناء جميل واندفاع قلبي وهذه الصفات توجد عند النساء
في الغالب . غير ان المرأة الجاهلة لا تجد من نفسها مرشداً
يهدئها الى سبل الخير فتصرف ما اودعه قلبها من كنوز الرحمة
في أصغر الامور واحقرها

هذا هو عمل المرأة في الامم المتقدمة وقد وجد في مبدأ
الاسلام عدد غير قليل من النساء كان لهن اثر في مصالح المسلمين
العامه فجميع المسلمين يعلمون ان طائفة عظيمة من الاحاديث النبوية
على اختلاف مواضعها قد رويت عن عائشة وأم سامة وغيرهما
من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة . وأن عدداً غير قليل من
النساء اشتهرن بخدمة العلم وجودة الشعر . وان عائشة تداخلت
في مسألة الخلافة العظمى وكانت رئيسة للحزب المعارض لاحد
الخلفاء . واني اورد هنا بعض ما خطبت به على الناس تحمليهم

على الانضمام الى الطائفة التي كانت قد انحازت اليها وهي الخطبة التي القاها عند دخولها البصرة

« ان الفوغاء من أهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدثوا فيه الاحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا » من قتل امام المسلمين (عثمان) بلا اثرة ولا عذر . فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام . والشهر الحرام . ومزقوا الاعراض والجلود واقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يتقدرون على امتناع ولا يأمنون . فخرجت في المسلمين اعلمهم ما اتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا » وما ينبغي لهم ان يأتوا في اصلاح هذا وقرأت : (لا خير في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس) نهض في الاصلاح ممن امر الله عز وجل « وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر » والانشي فهذا شأننا الى معروف تأمركم به ونحضكم عليه .

« ومنكر نهاكم عنه ونحشمكم على تغييره » (١)

وبروى عن ام عطية انها قالت : (وغزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات وكنت اخلفهم في رحالهم واصنع لهم الطعام واداوى الجرحى واقوم على المرضى والذي يقرأ هذه الاسطر يتخيل له انه يرى امرأة غربية من المرضات اللاتي وهبن حياتهن لخدمة الانسانية

والناظر في الاحوال التي فضات فيها شريعتنا الرجل على المرأة مثل الخلافة والامامة والشهادة في بعض الاحوال لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها . وان الشارع لم يراع في هذه المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في العائلة وحصر الوظائف العمومية في الرجال . وهو تقسيم طبيعي جرى على مقتضاه الى الآن الممدت في أوربا ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها الى اعلى مرتبة تستحقها . وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التي خولتها الشريعة الاسلامية الى المرأة في جميع الاعمال المدنية — ومنها أهليتها لان تكون

وصية على رجل — يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التي تؤدي الى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق

والقارئ الذي تتبع سلسلة القواعد الكلية التي سردها بغاية الايجاز لا بد أن يكون قد لاحظ أنها كلها تلخص في عبارة واحدة هي : أنه لا بد لحسن حال الامة من أن تحسن حال المرأة . فاذا ارسل الناظر فكره ليعيط باطراف هذا الموضوع اوسع وبجميع ما يرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع أسرارها فيرى صورة لا تشابه الخيال الذي كان يظنه جسماً . يرى المرأة التي يهيئها المستقبل تتألقاً في أنوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطري ولايسة حلة كمالها .

الثنائي : الجسم والعقل

العائلة

—

لا يتم اصلاح حال المرأة بمجرد التربية وحدها بل يحتاج الى تكميل نظام العائلة . نعم ان ارتقاء مدارك المرأة مما يساعد على كمال نظام العائلة ولكن هذا النظام نفسه على ما به من الارتباط بالمعائد والاحكام الشرعية له هو الآخر دخل كبير في ارتقاء المرأة وانحطاطها . ولهذا رأينا من الضروري استلفات الذهن الى أهم المسائل التي تمس بحياة العائلة وهي الزواج وتعدد الزوجات والطلاق . وستكلم عليها باختصار على هذا الترتيب

١

الزواج

رأيت في كتب الفقهاء أنهم يعرفون الزواج بأنه « عقد